النهار

الثلاثاء 19 نيسان 2011 - السنة 78 - العدد 24367

# مقابر جماعية في لبنان: حلّ لم يأت يتحوّل أفلاماً
## أهالي المفقودين "مشوا" مع "ابن بابل" وسألوا: متى نحن؟

فجأة تتسمّر العيون على شاشة عملاقة لا تظهر الا وجه الصبي وعينيه. عينا أحمد، ابن الـ12 عاما، الذي يفتش عن ابيه المفقود. وفجأة ايضا، تنسى انك تشاهد فيلما يقصّ حكاية ولد عراقي يبحث عن ابيه في السجون، ولاحقا بين الجثث في مقابر جماعية، فهذا الفيلم يحاكي قصص 17 الف مفقود لبناني.

هكذا، امتلأت قاعة سينما "صوفيل" مساء السبت الفائت، بأهالي المفقودين والمعتقلين. امهات، اباء، وابناء حضروا. بدل الاعتصام المستمر في حديقة جبران خليل جبران، والبيانات التي لا تلقى آذانا، كان إحياء القضية عبر فيلم. جلسوا، لا ليشاهدوا قصة هذا الولد العراقي فحسب، انما ليروا انفسهم فيه. في دموعه، واشتياقه الى اب مفقود، وفي تصميمه على معرفة الحقيقة. لكل واحد من هؤلاء حكايته. حكاية شاهدها في فيلم " ابن بابل" الذي تدور احداثه في نيسان 2003، في العراق، وتحديدا بعد ثلاثة اسابيع على سقوط صدام حسين.
لكن احمد ليس لوحده، فالمعاناة كبيرة، وقد انتقلت بين الاجيال. هي تربط بين جيل قديم غارق في حسرة دفينة، وجيل جديد حمل الحزن للمستقبل. من هنا، كانت الجدّة هي الحبكة. تلك الجدة التي تبحث عن ابنها ولا يمكن ان تصدق انه مات. في كل الفيلم تنادي ابنها: "ابرهيم خليل شاهور". هو ابنها الذي أجبر على ان يكون جنديا، ولم يعد الى منزله منذ حرب الخليج عام 1991، فكان عليها ان ترعى حفيدها احمد، لا سيما بعد وفاة والدته التي بدورها، انتظرت الزوج عمرا، ولم يأت!

### "جزء منا مات"

"رحلة بحث" ارادتها الجدّة بعدما انتظرت سقوط نظام صدام، لتفتش بنفسها عن ابنها المفقود، منذ سمعت ان بعض أسرى حرب الخليج وُجدوا أحياء في جنوب العراق. تبدأ الرحلة مع احمد، من جبال الشمال الى اراضي بابل. سارا معا، على رغم التعب والجوع والخوف. استوقفا العربات والباصات بهدف الوصول. واحيانا، مشيا مع رحالة مثلهم، لديهم الهمّ ذاته. تلك هي القصة التي وجدت فيها رئيسة لجنة اهالي المخطوفين في لبنان وداد حلواني نفسها. امام الشاشة، كانت وداد الى جانب كثر من الامهات، تكاد تلمس دموع الجدة وتعيش قهر الابن. فعند كل غصة في الفيلم، تسمع دموع الامهات في الصالة. ومع كل صرخة لتلك الجدة، تشعر ان ألما ثقيلا خنق صدر الامهات. وقد صرخن عندما قالت الجدة لاحدهم في الفيلم: "يموت جزء منا عندما نفقد طفلا".
هذا الفيلم للمخرج العراقي محمد الدراجي، حصد أكثر من جائزة، وعرض في لبنان بدعوة من جمعية "معا من اجل المخفيين"، للتذكير بمعاناة المخفيين، وللاضاءة على خطوات قد تشكل حلا. فيلم روائي، صوّر في مناطق مدمرة في انحاء العراق بعد القصف الاميركي. وفي لبنان، جذب أهالي المفقودين، وقلة نادرة، بعدما كان كثر يعتبرون انفسهم مدافعين عن القضية، التي يبدو انها باتت منسية. وحدهن الامهات جلسن الى جانب ممثلين للجنة الدولية للصليب الاحمر وجمعيات اهلية والصحافي الاسباني دييغو باركالا، المتخصص في المقابر الجماعية في اسبانيا.
نحو ساعتين، "سرق" احمد وجدته العيون والقلوب. فيلم قوي، أضاء على القضية بكل مراراتها. ومن المشاهد القوية، حين اقترب الولد وجدّته من سجن الناصرية. ركعت الجدة قرب الماء، غسلت وجه حفيدها بماء الفرات، وألبسته ثيابا جديدة، فالوالد ينتظره. بدا الولد كأنه يرتدي ثياب العيد.
بعدها، وصلا الى السجن... فأدركا ان ابرهيم ليس موجودا. هناك، صرخ احمد ينادي اباه: " 12 عاما ولم ارك. أين أنت يا أبي؟"، وكانت الجدة تجلس ارضا، حاملة صورته، تشمّ رائحة التراب، لان ابنها كان هنا!. ولم تفقد الامل. بل أكملت المشوار حتى وصلت الى جامع. ترجّت شيخا لتدخل، بعدما علمت ان احد السجناء المشوّهين مختبئ في الداخل. قالت له: " هل تعلم بما تشعر الامهات؟". رحلة طويلة، قطعها احمد وجدته، كانت الاخيرة تتبدّل ملامحها. تكبر. يذبل وجهها وجسمها يضعف، والولد ينمو وينضج. وبعد رحلة السجون، بدأت الجدة تقتنع ان ابنها قد يكون في المقابر الجماعية المكتشفة. فبدأت الرحلة الجديدة: تفتيش بين العظام، وبلا جدوى.

**خطوات لبنانية مفقودة**

وسط المقابر الجماعية، فتش الولد بيديه عن رفات والده، فيما الجدة لا تتعب من مناداة ابنها. وسط المقابر، رفات لا هوية لبعضها، ولا عنوان. الولد تائه، يركض من رفات الى آخر. والجدة تتعب. يسيران من جديد، وما ان يصلا الى بابل. تشرق الشمس. فتفارق الجدة الحياة! بات للولد قدر المتابعة لوحده.

فيلم مؤثر لا يترك اللبناني غير آبه بحجم المرارة عندنا. هكذا، غالبا ما تتحوّل القضايا الانسانية افلاما، ولكن هل ستبقى افلاما غير قابلة للتحقيق؟

عقب الفيلم، عقدت ندوة، ذكرت بمطالب "سوليد" و" لجنة اهالي المخطوفين" اي "باطلاق من في السجون السورية، وباعادة رفاتهم اذا كانوا امواتا، وبتحديد مواقع المقابر الجماعية".

أما الصحافي باركالا فشرح لـ"النهار" ان "أبرز الخطوات المطلوبة لبنانيا، تنظيم خطوات أهالي المفقودين والضغط الفعلي على الحكومة، لان الدولة اللبنانية ينبغي ان تكون معنية بهذا الملف، وعليها اولا تحديد عدد المفقودين، ومن ثم انشاء بنك للحمض النووي، فتحديد للمقابر الجماعية على خريطة المناطق اللبنانية، بلا استثناءات، فضلا عن تخصيص فريق من التقنيين، لتولي القضية".

باركالا عمل في صحيفة " دياريو بابليكو"، على ملف المفقودين في اسبانيا، ومنذ خمسة اعوام، نجح بالتعاون مع جمعيات الاهالي في كشف مصير 4 آلاف رفات، حددت هوية ألف من أصحابها، فيما يقدّر ان يكون العدد مئة الف.

وإذ يقول: "إن المفقودين لم يختفوا في كتب التاريخ، والمجتمع يجب ان يكون بسلام مع ماضيه"، يؤكد أن "من حق الاهالي ان يدفنوا اولادهم، اذا كانوا امواتا، وفي مكان لائق".

ويختم: "دور الصحافي مهم جدا في هذا الاطار، ففي اسبانيا مثلا، كانوا يتكلمون على المفقودين في اميركا اللاتينية، وتحديدا في الارجنتين، وبعد الضغط الصحافي، بات المجتمع يدرك حجم معاناة المفقودين في اسبانيا، والسلطات تحركت للعمل".

طوال فيلم "ابن بابل"، شيء وحيد لا يفارق يدي الولد: هو الناي. ناي والده الذي لطالما احب ان يكون موسيقارا. ناي عزف عليه، علّ صوته يصل الى ابيه. ولكن في لحظة، دخل الطفل نفقا مظلما يشبه حياته، فصرخ: "... أبي، يا أبي، أين أنت. صدى هذا النفق اقوى من صوت الناي". انه نفق يدمّر عائلات المفقودين عندنا، نفق يظل يردد الصدى ذاته: "المقابر الجماعية في لبنان، حل لم يأت". والاهالي "يسيرون" مع ابن بابل وجدته في رحلتهما الطويلة، ويسألون: "متى نحن؟".

**manal.chaaya@annahar.com.lb**

**منال شعيا**

جميع الحقوق محفوظة - © جريدة النهار 2011